كتب

يُحلّل كتاب الباحث الفرنسي من أصل جزائري مكوّنات المشهد السياسي الفرنسي في علاقته بالإسلام بوصفه عنصراً ثقافياً ومكوّناً لهوية ملايين من سكّان فرنسا، مضيئاً مظاهر التدخّل المفرط لجهاز الدولة لمحاصرة ما تعتبره الجمهوريةُ تهديداً لوجودها ومقوّماتها

حوّاس سنيقر عن تغوّل الأمن وتكلُّس الجمهورية

فرنسا والمسلمون في سبع سنوات

نجم الدين خلف الله

يُجمع المراقبون للشأن الفرنسي على وجود انحراف سلطوي لافت لدى أجهزة الدولة الفرنسية، والتي باتت تتجاوز وظائفَها وصلاحيّاتها بذريعة الدواعي الأمنية، فارضةً طوقًا خانقًا على المسلمين في هذا البلد. فحكومات الرئيس الحالي إيمانويل ماكرون المتعاقبة، منذ تولّيه السلطة في سنة 2017، ضيّقت الخناق على المسلمين، ونظرت إليهم بعين الريبة وكأنّهم مواطنون من درجة ثانية. وإلى جملة العوامل التي أدّت إلى تكلّس الجمهورية واحتمائها بالذرائع الأمنية، يعود الباحث حوّاس سنيقر في كتابه «الجمهورية المتسلّطة: إسلام فرنسا والوهم الجمهوري 2015 - 2022»، من أجل تحليل أسباب هذا الانحراف وتفكيك مظاهره ونتائجه.

فرنسا والإسلام

ينقسم الكتاب (الصادر عن منشورات Le Bord de l›eau عام 2022) إلى اثنين وعشرين فصلًا، إلى جانب المقدّمة والخاتمة، تتناول جميعُها مظاهر التدخّل المفرط لجهاز الدولة الفرنسي، بما في ذلك قمّة سلطتها، في محاصرة ما تعتبره الجمهوريةُ «أصلَ الشر» ومصدر تهديد لوجودها ومقوّماتها. فمنذ القرون الوسطى، كان يُنظر إلى الإسلام في مغايرة مطلقة تتناقض كلّيًا مع القيم التي تأسّست عليها الأنظمة الزمنية الغربية في الحُكم والتقييم. وممّا زاد هذا التوتر، الربط جزافًا بين الإرهاب والإسلام، والازدراء المبالغ فيه للتشدّد الديني، والذي لم يُنتج إلّا تشدّدًا أكبر وأشمل. كما أنّ الإرث الاستعماري وجروحه وندوبه ما زالت تُشكّل عقدة متواصلة تؤثّر في هذه العلاقة.

حتى يثبت العكس

وهكذا، تتوالى فصول الكتاب لتُحلّل كافّة مكوّنات المشهد السياسي الفرنسي في علاقته بالإسلام، باعتباره عنصرًا ثقافيًا ودينيًا ومكوّنًا لهوية عدّة ملايين من سكّان فرنسا ومصدر القيم لديهم. وهو مشهد شديد التعقيد لأنّه يتألّف من عناصر متباعدة في الزمن، بعضها يعود إلى عقود القرن الماضي وبعضها الآخر إلى المخيال الأوروبي- الإسلامي الذي انتسج طيلة القرون الوسطى، والذي سبق للمؤرّخ التونسي هشام جعيّط أن فكّكه في كتاب «أوروبا والإسلام» (1978). ولا يزال هذا المخيال يؤثّر في هذه المواجهة المستمرّة بعد أن غدا الإسلام جزءًا لا يتجزّأ من فرنسا ومكوّنًا ديموغرافيًا لا يُستهان به. كما يُخصّص سنيقر بعض الفصول، مثل الفصلَيْن الرابع والخامس، لوصف «تمشّيه المنهجي» القائم على المقاربة الاستقرائية، حيث لجأ إلى البحث الميداني المكثّف، مستعينًا بأدوات من العلوم السياسية ومناهج علم الاجتماع، لتكون محاولتُه هذه مبنيّة على أسس راسخة. وتدور بقية الفصول حول العلاقة بين الدولة والقانون والمجتمع في فرنسا إبان العقد الراهن، حيث غالبًا ما يفلت القانون من يد الجهاز ويتحوّل إلى «عصا» أمنية تُرفع في وجه ما تعتبره الدولة تهديدًا لأمنها ولمصالحها، كما سبق وأن حلّل ميشال فوكو هذا «الإفلات». وهذا عين ما حدث في فرنسا منذ 2015، حيث عاين سنيقر الإفراط في استخدام الترهيب وتكميم الأفواه وبسط السيطرة، خاصّة في أوساط المسلمين الذين يُعامَلون كمشتبه بهم حتى يثبت العكس.

بحجّة التهديد الإرهابي

كما عاد أستاذ العلوم السياسية في «معهد العلوم السياسية» بمدينة ليون إلى تحليل الخطاب الذي تروّجه وسائل الإعلام وجهاز الأمن ويعتمده الساسة في خطاباتهم ومداولاتهم، وعلى رأسهم وزراء الداخلية، فضلاً عن بعض المثقّفين والإعلاميّين والأكاديميّين، وكلُّهم يتّخذ من الشأن الإسلامي موضوعًا للنظر والتأويل. ويتّضح من خلال تحليله أنّ الريبة هي السائدة، إذ لا يُسمح للإسلام - شعائرَ ومبادئَ - بالظهور في الفضاء العام إلّا بالقدر الذي تراه السلطة مناسبًا، وهو مقدار ضئيل يتناقص باستمرار بحجّة التهديد الإرهابي ومخالفة القانون وعدم التوافق مع قيم الجمهورية. كما شمل تحليل الخطاب بعض ما يُصدره رؤساء الأحزاب والجمعيات والوزراء، وحتى الرئيس، خصوصًا في خطابه بمدينة ميلوز، في الثامن عشر من شباط/ فبراير 2020، حيث أعاد ماكرون طرح مصطلح «الانفصالية» الغامض، الذي أصبح تهمة قانونية تُوجَّه لأيّ سلوك لا يتماشى مع القوالب الضيّقة التي يرسمها النظام الأمني، وهي معايير اعتباطية تتغيّر حسب الفصول والغايات.

تناقضاتٌ عميقة

وقد كانت منهجية حوّاس سنيقر في هذا التحليل ترتكز على إظهار التناقضات العميقة التي تكشف ضعف هذه المواقف وتفضح هشاشتها أمام النقد، رغم فرضها بمنطق القوّة والتسلّط. وفي هذا السياق، يتوافق الكاتب مع تمييز كلود ليفور بين «الدولة» و«السلطة السياسية»، أي بين الجهاز القائم الذي يضمن التماسك الاجتماعي، كما حلّل تجلّياته بعمق المفكّر المغربي عبد الله العروي في كتابه «مفهوم الدولة»، وبين استغلال السلطة السياسية من قبل الحكومة في فترة زمنية معيّنة؛ استغلال قانوني يدعمه سند حزبي وحتى عسكري، لتحقيق أهداف قد تتحوّل إلى إفراط وتسلّط أو حتى استبداد، وهو ما يُمارَس الآن على مسلمي فرنسا، الذين يواجهون تضييقًا متزايدًا، خاصّةً بعد أحداث السابع من تشرين الأوّل/ أكتوبر 2023، حيث اختلط التعاطف مع فلسطين بـ«معاداة السامية»، وارتبطت هذه الأخيرة بمشاعر معاداة الأمّة وكراهية القيم الجمهورية وحتى الرغبة في الانفصال. وهي انزلاقات خطيرة تتهاوى إلى توصيفها أجهزة الأمن وتستغلّها أحزاب اليمين المتطرّف.

تحليل الخطاب

يُحيل هذا الكتاب بكثرة إلى رموز الفكر السياسي والسوسيولوجي الحديث، حيث وفّرت هذه المفاهيم أدوات تحليل علمية لفهم العلاقات بين هذه الظواهر المتشابكة وتفكيكها. لكن يلاحَظ غياب شبه تامّ لتحليل الخطاب والنظريات اللسانية، ممّا جعل الكتاب يفوّت تفكيك معاني المصطلحات المركزية في خطاب المسلمين، مثل «الشريعة»، و«العلمانية»، و«التوافق مع السلطة»، و«التطابق مع التراث» وغيرها، كما يفهمها المسلمون من خلال كتاباتهم وحواراتهم، وكما يوظّفه كلّ طرف من مصطلحات تختزن أيضًا صراعات ومنافسات رمزية. ولا شكّ أنّ التحليل السياسي كان ليكون أعمق وأثرى لو غُذّي أكثر بتحليل الخطاب- في صيغه العربية - وتفكيك المفاهيم الفاعلة لدى كلّ طرف.

منذ 2015

ومع ذلك، يُعدّ هذا الكتاب موقفًا جسورًا، واجه فيه مؤلّفه انحرافات السلطة السياسية وتوجّهاتها العنيفة بالتحليل العلمي المدعوم بالوثائق، والمستند إلى الوقائع التي جرت في فرنسا منذ عام 2015 حتى اليوم. تُعتبر هذه الانحرافات، التي لم تتوقّف، بل تسارعت وتيرتها بحجّة الحفاظ على السلم الاجتماعي وهيبة الدولة، لصيقةً بأيّ جهاز يشعر بالضعف ويعيش أزمة داخلية، فيلجأ إلى التصعيد الأمني وخنق الحريات لفرض السيطرة وجعل الدولة فوق القانون. وقد نجح حوّاس سنيقر في تصوير هذا الانزلاق الخطير من دون الوقوع في فخ الالتزام السياسي الضيّق أو الارتهان لمقولات جماعية أو هيئات محدّدة، حيث التزم بحرية البحث وصرامته، مما شكّل حصنًا له ضدّ أيّ تحيُّز. فهل ستكون مثل هذه الكتابات الجريئة قادرةً على التأثير؟ أم أنّها ستؤدّي إلى تشديد الخناق أكثر، بدعوى أنّ البحث العلمي قد «تأسلم» هو الآخر وصار بأيدي باحثين قد يُرمون بالتشكيك في قيم الجمهورية؟

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

يعاين ترهيب مسلمي فرنسا ومعاملتهم كمشتبه بهم

يضيء انحرافات السلطة السياسية وتوجّهاتها العنيفة

حوّاس سنيقر

بطاقة

Haoues Seniguer حوّاس سنيقر، باحث فرنسي من أصول جزائرية، متخصّص في العلوم السياسية. يعمل منذ 2015 أستاذاً محاضراً في «معهد العلوم السياسية» بمدينة ليون. حصل أخيراً على شهادة الإشراف على الأبحاث في مرحلة الدكتوراه، ونشر العديد من المقالات والكتب حول دراسة ظواهر الإسلام السياسي، ولا سيما في المغرب. من أبرز مؤلّفاته: «الإخوان المسلمون الجدد والروح الرأسمالية الجديدة» (2020).

نظرة أولى

صدر عن دار «بلانياكس» في سراييفو كتابٌ بعنوان **فلسطين في ضمير الإنسانية** للأكاديمي والمُفكّر البوسنوي أسعد دوراكوفيتش (1948)، وهو يتضمّن المقالات التي نشرها في الصحف والمجلّات البوسنوية على امتداد عام ونيف من عُمر حرب الإبادة الإسرائيلية على غزّة، وتناول فيها مختلف الجوانب الجيوسياسية والمواقف العربية والدولية بكافة تلوّناتها حول العدوان المستمرّ منذ السابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2023. كان دوراكوفيتش أول من أصدر في يوغسلافيا السابقة مختارات لمحمود درويش بعنوان «قصائد مقاومة» (1984) ثم ألحقها بمختارات من الشعر الفلسطيني.

يقدّم عالم الاجتماع الفرنسي الراحل بيير بورديو، في كتابه **التميُّز: النقد الاجتماعي للحكم**، منظوراً سوسيولوجياً للأذواق وأساليب الحياة، وتحليلاً موسّعاً لظاهرة تمايُز الطبقات الاجتماعية، مختلفاً مع المنظور الماركسي للطبقات الذي يتّكئ على التفسير الاقتصادي فقط. كما يُظهر الكتاب، الصادر بطبعة عربية عن «الشبكة العربية للأبحاث» بتوقيع نصير مروة، قراءة جديدة لماكس فيبر، يرى فيها صاحبُها أنّ صراع الأفراد يرتكز على الفرز الثقافي إضافةً إلى الفرز الاقتصادي، وأنّهم يتصارعون حول مواقع السيطرة والتميّز الاجتماعي والطبقي.

صدر عن «دار الساقي» كتاب **الثقافة، المعرفة والإيديولوجيا** للأكاديمي والباحث المغربي عبد الإله بلقزيز. ينطلق الكتاب من التفريق بين الالتباسات حول المفاهيم الثلاثة التي كثيراً ما يقع الخلط بينها ويجري التعبير عنها كمترادفات، بينما يرسم المؤلّف حدود الاختلاف والتمايز بين الثقافة والمعرفة والإيديولوجيا في العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ حيث يزداد حضورها خلال العقود الأخيرة من دون بذل جهد نظري في تقديمها واستعراض تطوّرها، كما يتعقّب هذه المفاهيم في الإنتاج الفكري العربي، من خلال تحليل مجموعة من المؤلّفات.

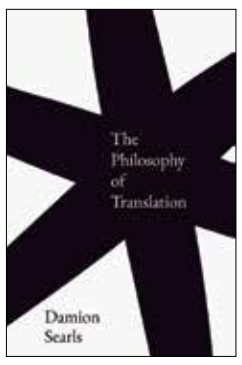

متجنّباً المناقشات النظرية، يكتب المترجم الأميركي داميون سيرلز في عمله الجديد **فلسفة الترجمة**، الصادر عن «منشورات جامعة ييل»، وصفاً جديداً لماهية الترجمة وما يفعله المترجمون فعليّاً، انطلاقاً من كونه مترجماً لستّين كتاباً من لغات متعدّدة، أمضى معها عقوداً من الزمن في صراع مع الكلمات: الأسماء والأفعال، والقوافي، والإيقاع، والفروق الثقافية الدقيقة «غير القابلة للترجمة». يرى سيرلز أنّ الترجمة هي في الأساس طريقة للقراءة أبعد بكثير من مجرّد تلقٍّ للمعلومات أو عملية ميكانيكية لتحويل كلمة إلى أُخرى.

عن «مركز دراسات الوحدة العربية»، صدر كتاب **دور عائلة روتشيلد في إنشاء دولة «إسرائيل»** للباحث معتمر أمين. يتناول الكتاب الدور الذي قامت به عائلة روتشيلد على مدى أكثر من قرن لدعم إنشاء دولة يهودية في فلسطين؛ حيث سبق دورُها إنشاءَ الحركة الصهيونية بقرابة نصف قرن، مضيئاً مساندتها ما سُمّي بالحركة الشعبية اليهودية التي انطلقت من شرق أوروبا وعُرفت بالحركة الصهيونية، ورعايتها للمنظّمة الصهيونية منذ نشأتها عام 1897، ودورها في دعم وتنظيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وفي إقرار وعد بلفور، وتوفير الشروط السياسية والمادية لتحقيق الوعد.

رواية **أشرف البعلوجي** ليحيى السنوار، والصادرة عن دار «خطوط»، هي عمل أدبي يستعرض حياة الأسير الفلسطيني أشرف البعلوجي. يصف فيها أبو إبراهيم رحلة أشرف منذ طفولته في غزّة، وانتمائه للحركة الخضراء، إلى ملاحقته وأسره، متناولاً تفاصيل المقاومة وحياة الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال الإسرائيلي. يقدّم الكتاب وصفاً لمعاناة الفلسطينيّين منذ النكبة، ويستعرض مشاعر الفدائي وشجاعة أصحاب المثلّثات الحمراء، كما يتطرّق إلى طبيعة العدوّ. وبين السطور، يشير الكاتب إلى تلاحم أعضاء الحركة ودورهم في حماية الفدائيّين.

في كتاب **فنزويلا: مذكّرات مستقبل ضائع** الصادر عن دار «كاتراتا» الإسبانية، يُشبّه الصحافي الفنزويلي رافائيل أوسيو كابريسيس بلاده بالحوت الذي جنح على الشاطئ محاطاً بالناس المذهولين. لا أحد يعرف كيف وصل الأمر إلى هناك، لكن الجميع يريد أن يشرح الأسباب. ماذا حدث لهذا البلد الذي بدا لفترة طويلة أنه يقدّم الكثير؟ يجيب الكاتب عن السؤال من ثلاث وجهات نظر: كصحافي شهد الأحداث الرئيسية وتمكّن من الوصول إلى أبطالها، ومهاجر يسمح له البعد برؤية وطنه بعيون مختلفة، وفرد من الجيل الأخير الذي جرّب الديمقراطية وآمن بوعودها للمستقبل.

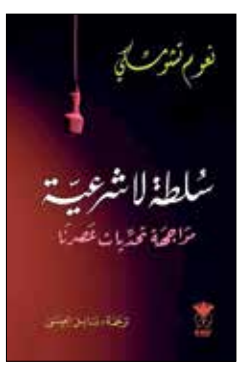

نعيش عصراً سِمتُه الخطر والقلق. العالم مشحون بالعدوان والتوتّر، إذ أعاد الغزو الروسي لأوكرانيا الحرب إلى أعتاب أوروبا. تغيُّر المناخ يتسارع، والآثار الشديدة للاحترار العالمي ترسّخت واقعاً مفزعاً يصاحبه استمرار خطر الأسلحة النووية، الذي يفرض بدوره تهديداً للبيئة وبقاء النوع البشري على حدٍّ سواء. يعالج المفكّر الأميركي نعوم تشومسكي في كتابه **سلطة لا شرعية**، الصادر عن «دار نينوى» بترجمة بابل العيسى، هذه التحدّيات وغيرها، خصوصاً بعد أن مزّقت النيوليبرالية النسيج المجتمعي وأفسحت المجال لصعود الشعبوية.